

أهمية المعرفة

ليس أخطر على الإنسان من أن يظن أنه يعرف كل شيء، وليس أعظم منه حين يدرك أن ما يجهله أكثر مما يعلم، وأن تاريخ الإنسان بدأ فعليا في اللحظة التي طرح فيها أول سؤال. فالسؤال هو الشرارة الأولى للمعرفة، والمعرفة هي القوة الوحيدة التي استطاعت أن تغير علاقة الإنسان بالطبيعة، وبالمجتمع، وبنفسه. ولعل الفرق الجوهرى بين الإنسان وغيره من الكائنات ليس امتلاكه للعقل فحسب، وإنما قدرته على استخدام هذا العقل في البحث المستمر عن تفسير العالم، وإعادة تفسيره كلما ظهرت معطيات جديدة. ولذلك لم تكن الحضارة في جوهرها سوى التاريخ الطويل لرحلة الإنسان في البحث عن المعرفة. وقد درج كثيرون على النظر إلى المعرفة باعتبارها تراكما للمعلومات، بينما يذهب علماء المعرفة وفلاسفة العلم إلى أنها عملية مركبة تبدأ بالملاحظة، ثم التساؤل، فالتحليل، فالاختبار، حتى تتحول إلى فهم يغير طريقة الإنسان في التفكير واتخاذ القرار.

المعلومات يمكن للجميع ان يعرفها، أما المعرفة فهي القدرة على تنظيم تلك المعلومات وربطها ببعضها واستخلاص المعنى منها. ولهذا فإن أخطر ما يواجه المجتمعات الحديثة ليس نقص المعلومات، وإنما وفرتها الهائلة في مقابل ضعف القدرة على تحليلها وتمييز الصحيح من الزائف. لذلك تنبع أهمية المعرفة وتأثيرها على المجتمعات في أمور كثيرة، لأنها تؤثر مباشرة في جودة حياة الناس، وفي طريقة اتخاذ القرار، وفي قدرة المجتمع على التقدم. ويمكن تلخيص أهميتها في نقاط واضحة.. تحسين جودة الحياة.. تدعم المعرفة فهم الصحة، والبيئة، والتغذية، وأساليب العيش السليم، فتقلل الأمراض ويزيد الوعي المجتمعي. وتطوير التعليم والمهارات فكلما زادت المعرفة انتشرت مهارات التفكير والقراءة والبحث، وارتفعت فرص العمل والإنتاج. ومن خلال المعرفة يكون المجتمع أكثر قدرة على مواجهة الأزمات واتخاذ قرارات مبنية على الدليل بدل الشائعات. ومكافحة الجهل والخرافات.. إذ يقل تأثير المعلومات الخاطئة ومساعدة الناس على التمييز بين الصحيح والمضلل. وتعزيز الابتكار والتقدم.. فعبر العلوم والمعرفة تفتح المجال لاختراع حلول جديدة للمشكلات (في الزراعة، الطب، التكنولوجيا، الطاقة...). وترفع كفاءة الأفراد والمؤسسات، وتزيد القدرة على المنافسة وجذب الاستثمارات اقتصاديا مما ينعكس على المجتمع. إذ أن الاستعداد للمستقبل من قبل المجتمعات المتعلمة تكون أفضل في التعامل مع التغيرات (التقنية، المناخية، الاقتصادية) والتكيف معها.

إن البحث عن المعرفة يعيد تشكيل الإنسان من الداخل. وقد أثبتت دراسات علم الأعصاب أن الدماغ البشري يحتفظ بمرونة مذهلة طوال العمر، وأن التعلم المستمر ليس مجرد اكتساب لمهارة، بل عملية بيولوجية تحفظ كفاءة العقل وتحد من تراجعه مع التقدم في السن. لذلك إن الإنسان الذي يتوقف عن التعلم لا يفقد فرصة معرفية فحسب، وإنما يفقد جزءا من قدرته على النمو العقلي والنفسي.

وإنما تقوم المجتمعات وتنمو على حسب مستوى المعرفة السائد بين أفرادها. فالثقة بين الناس، واحترام القانون، والقدرة على إدارة الاختلاف، والمشاركة في الشأن العام، كلها ترتبط بدرجة الوعي الجمعي. وكلما ارتفع هذا الوعي، تراجعت سلطة الشائعات، وضعفت النزعات المتطرفة، وأصبح الحوار هو الوسيلة الطبيعية لحل النزاعات. العالم يعيش الآن ما يسميه الباحثون "اقتصاد الانتباه"، وهو نظام إدارة معلومات ويعتبر تركيز الإنسان وانتباهه سلعة نادرة وقيمة. في هذا النظام، تتنافس الشركات والمنصات الرقمية بشراسة لاستحواذ وقت المستخدمين وإبقائهم متصلين لأطول فترة ممكنة. ويصبح التفكير النقدي هو خط الدفاع الأول ضد التلاعب العقول. لذلك تصبح القراءة والتعلم والبحث المستمر عن المعرفة ضرورة لحماية الفرد والمجتمع من الاستلاب الفكري.

والتنمية في حقيقتها هي نتاج مباشر للمعرفة. فالاقتصاديون اليوم يتحدثون عن "اقتصاد المعرفة"، حيث تقاس الثروة بما تمتلكه العقول من قدرة على الابتكار والإبداع. فاليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة لم تبني مكانتها العالمية اعتمادا على وفرة الموارد الطبيعية، وإنما على الاستثمار طويل الأمد في التعليم والبحث العلمي، حتى أصبحت المعرفة نفسها موردا اقتصاديا يفوق في قيمته كثيرا من الموارد التقليدية. ولهذا فإن الفجوة بين الدول المتقدمة والنامية ليست فجوة في الموارد بقدر ما هي فجوة في إنتاج المعرفة وتوظيفها.

إن البحث عن المعرفة ليس هواية للنخبة، ولا مرحلة تنتهي بالحصول على شهادة، بل هو أسلوب حياة. إنه إيمان بأن الإنسان مشروع غير مكتمل، وأن أفضل ما يمكن أن يفعله في رحلته القصيرة على هذه الأرض هو أن يضيف إلى وعيه كل يوم فكرة جديدة، وأن يترك وراءه معرفة تنفع الناس.

